

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لا يعادله في آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبي في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته (*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى في ذلك ترتيب زمني أو منطقي ، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة النبي ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها ، فجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء في تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) في مدن العالم الإسلامي الآخذ في الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التي أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدي إلى غرض واضح مفهوم - فهي إما أن تقرن عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل في قراءته بعض الاختلاف لأسباب منها الخلو من النقط والشكل المعتاد في كتابتنا في هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتمل إلى شيء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد في تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه في كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبي بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه بما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله في صحف حفظته كاملاً ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول المؤلف ، والثالثة كانت في أيام عثمان بن عفان وفيها رتب سور بعضها في إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفي هذه المرة التي كانت في أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سورته أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لهؤلاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإتيان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ ج ١ ص ٦١ . (ح)

على مبدأ أخلاقي ، أو تضع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية(*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها في كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه(†) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليده أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهي مرتبة حسب طولها ، لا بحسب تزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار ، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طولها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب(+) . فالسور المدنية وهي التي يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها بعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعي في كتاب سماه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التي ذكرها لا بخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أسخفه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بضعه ببعض » (الإتيقان للسيوطي ج ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً في موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو ينتقل معه في فنون مختلفة من العلوم والمعارف التي لا يكاد يحصرها العدد . (ي)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله في مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعي هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شيء جديد ، إلا أنه قد كتب كله في عهد صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع في كتاب واحد ولم ترتب سورة . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حين كتابته في مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ي)

(+) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه =

عملية في أغراضها عادية في أسلوبها ، أما السور المكية فهي شعرية روحية وبها ينتهي الكتاب . وخلق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته (*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبي أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل ؛ وهي التي نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في

= ولم يراع في هذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، ولذلك لا يمكن القول إن القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طوالها بوجه عام .

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سورة وآياته ، مسألة عني بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً في هذا على رأى واحد . (راجع مثلاً « الإتيان » للسيوطي ج ١ ص ٩ وما بعدها و « مقدمتين في علوم القرآن » نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعها في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م ص ٨ وما بعدها .

(*) لا يمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لا يمكن القول إن أسلوب السور المدنية التي يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خلق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف في موضع آخر إن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى وإنه غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطيع تبينه من التراجم نفسها فضلاً عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سورته سهلاً لما عجز العرب في عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو بعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتمايزه وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله في أعلى طبقة من البلاغة تقطع الرقاب دون الإتيان بشيء قريب منه ؛ وكفى أنه تنزيل من رب العالمين . (ي)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة ؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابه التى لا توأم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، فى الأدب النثرى العربى .

الفصل الثاني

العقائد(*)

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين أن يكون سبيلاً إلى الحكم الأخلاقي ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أي حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره في التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شئونه - أي الإيمان بأنه مهما يكن في هذا الكون من شر ، فإن عقلاً خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التي أعانت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضاقت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدّها حماسة . وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هي السورة الثانية عشرة بعد المائة .

(*) سنذكر في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير في المتن أحياناً ، وفي الهامش على الدوام ، أنها أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مثذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وثرى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقصباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . . . « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول في آية الكرسي الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبي لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار ، فإنه لا يعمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شيء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضي ، وإذن فكل الأشياء سابقة في

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذ الذي ينجو من العذاب وهو الذي « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك في أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان غير أنه مع ذلك قول عنيف في أي دين ، ولكن محمداً يؤكد بنفس القوة التي يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة في التفكير الإسلامي(*) ، وقد استعان بها النبي وغيره من الزعماء لبث الشجاعة في قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجران ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التي عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم في القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يمحسون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجان مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة في أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية في أعماله ما يجعله عدلا مستولا عنها ، وليست الجبرية مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ي)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم في تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن ، كما هي الحال في كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة ، « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شيء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شيء ينتهي عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إن هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣ - ٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموتي سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتمنى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات في الصور ، ففي النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتذك الجبال والمباني فلا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لها (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفي النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها - الملائكة والجن والبشر - إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التي دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة

الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول الغزالي في إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط - وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف - المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله (*). ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات في كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التي تشوي الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التي وصفها في ملهاته في القرآن .

وتختلف صورة الجنة في القرآن عن صورتها في ملهاته دانتى فهي في القرآن واضحة ووضوح صورة النار . والجنة هي مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله ،

= من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التي بها يقوم الموق للحشر والحساب . راجع قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفختين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذي يثاب عليه الإنسان في الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ي)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهي حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحتها الأنهار وتظلها الأشجار الضليحة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجوهر ، ويتكثون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطي أغصانها لهم ليمشوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة في الدنيا) في أكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً » (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات (*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفي الجنة غير هذه المتعة الجسمية مستمتع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيتجلى لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذاً الذي يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور في الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التي لها قيمتها في هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمعناها الحرفي بل يجب أن نتأخذها على أنها تقريب للأذهان لما يستمتع به الصالحون في الجنة من نعيم روحى . (المترجم)

الفصل الثالث

القرآن والأخلاق

القانون والأخلاق في القرآن ، كما هما في التلمود ، شيء واحد ، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشمل قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلام .

ولم يكن محمد يحقر التجارة ، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان في بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفي الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأعلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدي للعامل أجره قبل أن يجف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاءً (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يخص كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٩ و٨) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئته .

كذلك رفع من: مقام المرأة في بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً في خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم (*) . وهو يجرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لمن أن يحضرن الصلاة في المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف في مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرج ، ويروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحا رجلا كان أو امرأة وهذا أيضاً شأن العقاب في الدار الآخرة . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً في آيات أخرى . ويقول جل شأنه في سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيل ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين
كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي وفي القرن
الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التي تؤثر في الأخلاق الفردية ، ولعل
حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية
والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات
الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر - ولقد كانت
الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل
الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا
حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبي بالصيام
للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين
لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى
العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع
من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة في سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب في الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبي ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون
أيضاً حصاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد في كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة البهية المصرية
سنة ١٣٤٧ هـ ج ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي صلى الله عليه وسلم
وأزواجه فالمعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به إلا فيما خصه الله به دون
أمته » راجع في هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع
للشيخ الحضري ص ٨٨ - ٨٩ . (ى)

(**) وحثه بعد الزواج بطبيعة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً
حتى يغنيهم الله من فضله » معناه إن على الذين لا يجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى
يرزقهم الله الغنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين
الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن لهذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف
نفسه في غير هذا الموضع . (الترجم) . (٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجاز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج في الإسلام ، كما هو في الدين اليهودي ، إثم ، والزواج فيه فريضة محبة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزيدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التسرى (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٣١) (**).

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكته بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعاً حلالاً حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور(+)) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولي في حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين والشافعي يحتم وجود الولي في حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذي يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لا بد فيه من مهر لا يشترط أداؤه فعلاً ليتم عقد الزواج ، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨) . (٥)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً في كل حال بل المروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع في الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروهاً إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل . (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨) . (٥)

(+) عقوبة الزانى هي الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هي الرجم . (٥)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلاً عن هذا عن رمي المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحاً له في أيام الجاهلية(*) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ولكي يرغب الزوج على أن يطيل التفكير في إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في الحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » في ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن بنجب أبناء ، وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح في هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه في هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلقته ثلاثاً إلا بمقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بآخر ودخل بها وانقضت عدتها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها
ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل
الجنة(*) .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ،
ورقة قلوبهن ، ومفاتيهن ، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله . وقد
حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً
من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي
تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله . فذهب عمر
من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي . فقيل له
إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبي بهذا فأثار ضحكته .
وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث
عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن
ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى
عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أئمن شيء في العالم . ويذكر الله الناس في
القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة
وعشرين أو ثلاثين شهراً*** ، ويروى عن النبي أنه قال ، « الجنة تحت
أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من
حقوق لله ولبنى الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا
أن الزوجة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات
أخرى . (ى)

(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين
لمن أراد أن يتم الرضاعة » : ويقول في سورة الأحقاف : « ووضينا الإنسان بوالديه إحساناً
حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه
الرضاع . (ى)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل - كل - أي بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أي الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهي لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولد النبي بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصر على الجماعة الدينية التي أنشأها . فلما تم له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل ، وإن لم يكن في مقدوره (*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرقتة من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفي

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت في عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التي يشير إليها الكاتب هي سرايا التي كان يرسلها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حتماً ما يقوله من أنه لم يكن في مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحري رضاه الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه في القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مرء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين (*) « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . » .
« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) .
لكن القرآن يأمر في آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال فى الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه فى الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسبنا فى الدليل على هذا قوله جل شأنه فى سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظادروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ي)

سبيلهم إن الله غفور رحيم» - «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه»، «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» (سورة التوبة ٥ و ٦) . ومن وصايا أبي بكر لحيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك في الجهاد «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبي «والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» . و «لمقام أحدكم في الصف خير من صلواته ستين سنة» .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست في واقع الأمر تحريضاً على القتال «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (سورة البقرة ١٩٠) . وكان محمد يتبع قوانين الحرب التي كان تتبعها المسيحيون في أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثاني Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلوح أن الثغرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات (***)، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وخدمهم الذين يظنون أنه

(*) رواه أحمد والطبراني . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة» .

(**) لقد بيغنا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجتماعية هامة تنبه إليها كثيرون من الغربيين في هذه الأيام ، وليس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشعوب . (٥)

دين سهل من الواجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ
بالتأثر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*) . فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولئن
انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك
أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء في العهد القديم ، فهي تؤكد فضائل
الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام
يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح في هذه الدعوة دين
آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت
الذي نادى بمبادئ نشه قبل وجود نشه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا
المصاحف وزينوها وبذلوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين
إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو
المحور الذي يدور عليه تعليمهم والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم . وقد ظل
أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل
أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس

(٥) لم يجي الإسلام ليساير العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة
بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن في غير
ذلة لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من
ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التي آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً
وكان بما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه في سورة فصلت
« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة
كأنه ولي حميم .. » (٥)

السادجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الراضحة التي يتقبلها الجميع . (ي)